

خطبة الجمعة - الخطبة ٥١٨ : خ ١- قال تعالى : القارعة ما القارعة . . ، خ ٢- حليب الأم .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٠٣-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

الحمد لله نعمده ، ونستعين به ونستترشده ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً بربوبيته وإرغاماً لمن جحد به وكفر . وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله سيد الخلق والبشر ، ما اتصلت عين بنظر ، أو سمعت أذن بخبر . اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعلى ذريته ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

أسلوب القرآن الكريم أسلوب تربوي رائع :

أيها الأخوة الكرام ؛ هذه السور القصيرة في الجزء الأخير من كتاب الله عز وجل تحفظونها جميعاً ، وتقرؤونها في الصلاة كثيراً ، وحينما يتعرف الإنسان إلى مضمونها ، وإلى مدلولاتها ، وإلى أبعادها ، وإلى مراميها ، يأخذ العجب العجاب .

في الخطبة السابقة كان موضوع الخطبة قوله تعالى :

﴿الْهَآكِمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾

[سورة التكاثر: ١-٢]

ومحور هذه الخطبة هو سورة القارعة ، قال تعالى :

﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾

[سورة القارعة: ١-١١]

هذا الأسلوب أيها الأخوة ؛

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾

[سورة القارعة: ١-٣]

﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾

[سورة الحاقة: ١-٣]

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْقَارِعَةِ﴾

[سورة المرسلات : ١٤]

هذا الأسلوب أسلوب تربوي رائع ، فالله سبحانه وتعالى يقول : الْقَارِعَةُ ؛ كلمة مبهمة ، هذا الكلام المبهم يدعوك إلى أن تسأل : مَا الْقَارِعَةُ ؟ . . الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ؟ يأتي الجواب : وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ؟ أي لا أحد أعلمك قبل هذا ما القارعة . . وفي القرآن الكريم وردت كلمة وما أدراك ثلاث عشرة مرة ، ووردت كلمة وما يدريك ثلاث مرات .

القارعة : إبهام . . مَا الْقَارِعَةُ ؟ : تهويل . . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ : إعلام بعد جهل . وما يدريك؟ . . اقتضت حكمة الله عز وجل ألا تعلم هذا ما دمت حياً ، ربما تعلمه يوم القيامة . .

أيها الأخوة الكرام ؛ اللغة كما تعلمون مقاطع صوتية ، اصطلاح البشر على معاني لها فحينما يقول الله عز وجل : الْقَارِعَةُ : إبهام . مَا الْقَارِعَةُ : تهويل . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ . إعلام بعد جهل . . فهل المقصود من القارعة المعنى اللغوي ؟ . . قطعاً لا ؛ لأن معنى القارعة اللغوي : شيء صلب يقرع شيئاً صلباً فيحدث صوتاً . . هذا المعنى اللغوي ليس وارداً في هذه السورة ، المقصود المعنى الذي أراده الله عز وجل ، إنه يوم القيامة . . يوم القيامة : الحاقة ، والصاخة ، والغاشية ، والقارعة ، ويوم الفصل . هذه من أسماء يوم القيامة ، كأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعلمنا عن شيء غيبي . الْقَارِعَةُ : إبهام يدفعك إلى التساؤل . مَا الْقَارِعَةُ : تهويل . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ؟ لا أحد قبل هذا قد أعلمك ما القارعة . لكن الله عز وجل سيعلمك ، إذا قال الله عز وجل : وما أدراك : أي سيدريك . أما إذا قال الله عز وجل : وما يدريك ؟ أي أنه لا يدريك ، لا يعلمك .

الكلمة في اللغة لها معنيان لغوي وضعي و اصطلاحى :

أيها الأخوة الكرام ؛ هذه السورة القصيرة الكريمة تتعرض لموضوع من موضوعات يوم القيامة ، موضوع الميزان ، هناك سور تعرضت لصحائف الأعمال ، هناك سور تعرضت لاعتراف المذنبين ، هناك سور تعرضت لموضوعات كثيرة في يوم القيامة ، إلا أن هذه السورة اتجهت إلى موضوع واحد من موضوعات يوم القيامة ألا هو الميزان .

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾

[سورة القارعة: ١-٣]

أيها الأخوة الكرام ؛ توضيح بسيط ، الكلمة في اللغة لها معنى لغوي وضعي ، ولها معنى اصطلاحى ، فكلمة النحو معناها اللغوي : القصد ، اتجهت نحو البيت ، لكن كلمة نحو لها معنى اصطلاحى ، وهو علم قواعد اللغة . كلمة الحج معناها اللغوي أن تقصد شيئاً عظيماً ، معناها الاصطلاحى أن تتوجه إلى بيت الله الحرام في أوقات معلومة ، تنفيذاً لدعوة الله عز وجل وتقرباً إليه .

الفقه معناه اللغوي مطلق الفهم ، لكن معنى هذه الكلمة الاصطلاحى معرفة الأحكام التفصيلية من

أدلتها الكلية ، وكذلك كلمة القارعة ، ليس المقصود المعنى اللغوي ، المعنى اللغوي معروف ، ولو أن الله سبحانه وتعالى أراد المعنى اللغوي لما قال :

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾

[سورة القارعة: ١-٣]

القارعة شيء صلب يُضرب به شيء صلب آخر فيحدث صوت عظيم هذا هو القرع .

العبد يُقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة

قرع الباب ضربه حتى يُحدث صوتاً ، لكن القارعة في هذه السورة تعني يوم القيامة ، ويوم القيامة شيء غيبي .

الغفلة أشد مصيبة يصاب بها الإنسان :

أيها الأخوة الكرام ؛ الإنسان محجوز عن المستقبل بحاجز الزمن ، ومحجوز عن الماضي بحاجز الزمن ، ومحجوز عن الحاضر بحاجز المكان ، المكان يحجبك عن مدن أخرى لا تعلم ماذا يقع فيها ، والزمان يحجبك عن الماضي وعن المستقبل . لذلك كيف تعلم ما القارعة؟ لا بد أن يعلمك الله عن القارعة ، لأنها في المستقبل ، والزمن يحجزك عن المستقبل ، ويحجزك عن الماضي ، والمكان يحجزك عن الحاضر ، فأنت مخلوق محدود يحذك المكان ، ويحذك الزمان ، إذاً أنت لا تعلم من ذاتك ، لكن الله سبحانه وتعالى سيعلمك .

أيها الأخوة الكرام ؛ الحاقة ، والقارعة ، والصاخة ، والغاشية ، والقيامة ، ويوم الفصل ؛ هذه من أسماء يوم القيامة . هل من شيء أشدّ يقيناً وواقعياً من الموت ؟ ومع ذلك الناس في غفلة عنه . أيها الأخوة الكرام ؛ ما من مصيبة يُصاب بها الإنسان أشدّ من الغفلة ، أن يغفل عن مصيره ، أن يغفل عن ساعة الموت ، أن يغفل عن يوم القيامة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين . لذلك سمى الله عز وجل يوم القيامة بالقارعة ، لأن الإنسان يكون في الدنيا غافلاً ، ساهياً ، لاهياً ، مشغولاً ، نائماً ، فيأتي هذا اليوم ليقرعه قرعاً فيصحو .

يوم القيامة خاضع لإخبار الله عز وجل وليس لتحكيم العقل :

أيها الأخوة الكرام ؛ ربنا سبحانه وتعالى يؤكد أن هذا اليوم مغيب عنا ، والأشياء المغيبة عنا لا بد من أن نُخبر بها ، فلذلك هناك اليقين الحسي ، وهناك اليقين الاستدلالي ، وهناك اليقين الإخباري . يوم القيامة ، ماذا يوجد يوم القيامة من مواقف ، ومن مشاهد ، ومن أحداث ، هذا خاضع لإخبار الله عز وجل وليس خاضعاً لتحكيم العقل ، الله سبحانه وتعالى سيعلمنا .

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾

[سورة القارعة: ١-٣]

النبي عليه الصلاة والسلام قال فيما يرويه عن ربه :

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت - هذه الدائرة الأولى- ولا أذن سمعت- هذه الدائرة الثانية وهي أوسع من الأولى- ولا خطر على قلب بشر - والدائرة الثالثة أوسع من الثانية والأولى-))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

دائرة المرئيات محدودة ، ودائرة المسموعات كبيرة جداً ، ودائرة الخواطر لا يحددها شيء . ومع كل ذلك أعد الله لعباده في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . هذه الجنة التي وعد الله بها المتقين أيزهد بها ؟ أيغفل عنها ؟ أيعمل الإنسان من أجل الدنيا وهي سريعة الزوال وشيكة الانتقال ؟ . . . ورد في الأثر " أن اعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للدنيا بقدر بقائك فيها ، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها ، واتق النار بقدر صبرك عليها "

أيها الأخوة الكرام ؛ ربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[سورة السجدة: ١٧]

إذاً أمر يوم القيامة وما فيه من الجنة ونعيم أهل الجنة ، وما فيه من النار وعذاب أهل النار هذا مغيب عنا ، لكن الله سبحانه وتعالى رحمةً بنا ، وحرصاً علينا ، وتنبهياً لنا ، أعلمنا في كتابه عما سيكون يوم القيامة .

الناس يوم القيامة الذين غفلوا عن ربهم وعن منهجه كالفرش المبتوث :

أيها الأخوة الكرام ؛ الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ ﴾

[سورة القارعة: ٤]

هذا الإنسان المكرم ، المكلف ، المخلوق الأول ، الذي سُخرت له السموات والأرض ، تسخير تعريف وتكريم ، هذا الإنسان يوم القيامة لشدة الهول يصبح كالفرش المبتوث. فرش ، مخلوق صغير ، لا شأن له عند الإنسان ، إذا أوقد الإنسان ناراً في ليلة ظلماء يتهافت الفرش على النار في اضطراب لا يُوصف ، يتحرك حركة عشوائية ، يلقي بنفسه على النار ، هذه الصورة التي نعرفها في الدنيا ؛ مخلوق ضعيف لا قيمة له ، يتحرك حركة عشوائية ، مضطربة ، ربما يتحرك نحو النار . حال الناس يوم القيامة الذين غفلوا عن ربهم ، ولم يتعرفوا إليه في الدنيا ، وغفلوا عن منهج ربهم ، وعملوا للدنيا ، واستغنوا عن الآخرة ، هؤلاء البشر المكرمون في الدنيا ، الذين هم من أوائل المخلوقات ، تغدو حالهم يوم القيامة كالفرش المبتوث.

أيها الأخوة الكرام ؛ هذا الإنسان أصبح أدنى من الحيوان ، أو أصبح كالحيوان يتحرك حركة عشوائية مضطربة ، لا يلوي على شيء ، ربما ألقى بنفسه في النار .

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾

[سورة القارعة ٤-٥]

الجبال الشوامخ ، الجبل الذي هو كالطود يبدو كالعهن المنفوش ، يغدو كالعهن المنفوش ، كصوف متناثر .

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

[سورة إبراهيم : ٤٨]

من ازداد معرفة بضعفه ازداد قرباً من ربه :

أيها الأخوة الكرام ؛ من علائم العقل أن تصل إلى الشيء بعقلك قبل أن تصل إليه بجسمك ، من علائم العقل أن يكون عقلك مستكشفاً . ربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾

[سورة الكهف : ٢٣-٢٤]

لماذا ؟ . . ماذا تملك أنت من الدنيا ؟ قال العلماء : الحدث أو الفعل يحتاج إلى فاعل ، وإلى مفعول ، وإلى زمان ، وإلى مكان ، وإلى سبب ، وإلى قوة . لو أنك قلت لإنسان: سأذهب غداً لأكلم فلاناً في شأن نفلك إلى دمشق ، يجب أن تقول إن شاء الله ، هل تملك أن تبقى أيها الإنسان إلى غد ؟ وهل تملك أن يبقى الذي سوف تكلمه إلى غد ؟ وهل يبقى الزمان إلى غد ؟ وهل يبقى المكان إلى غد ؟ وهل يبقى السبب إلى غد ؟ . وإذا توافر الفاعل والمفعول والمكان والزمان والسبب ، فهل تملك القوة في التحرك إليه ؟ . .

أيها الأخوة الكرام ؛ كلما ازدادت معرفة بضعفك ازدادت قرباً من ربك ، كلما ازدادت معرفة بعبوديتك لله عز وجل كلما صار الطريق إلى الله سالكاً ، لا شيء يحجز الإنسان عن ربه إلا الجهل أو الكبر ، لا شيء يحجز الإنسان عن الإقبال على الله إلا أن يغفل عن عبوديته، وعن افتقاره .

أهوال يوم القيامة :

أيها الأخوة الكرام :

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ * وَتَكُونُ

الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾

[سورة القارعة: ١-٥]

وفي سور كثيرة أخرى وصف الله عز وجل أهوال يوم القيامة ، هذا كلام خالق البشر ، هذا كلام خالق الكون ، هذا كلام رب العالمين ، هذا الوصف الذي ورد في القرآن الكريم لابد أن يقع ، فالعاقل من أخذ الأهبة إليه قبل أن يقع .

أيها الأخوة الكرام ؛ ورد في الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاعَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَّاشُ ، وَهَذِهِ الدَّوَابُّ
الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَفْتَحِمْنَ فِيهَا فَأَنَا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ
وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا))

[منفق عليه عن أبي هريرة]

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ ﴾

[سورة القارعة: 4]

من حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابُه يوم القيامة يسيراً :

أيها الأخوة الكرام ؛

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾

أنت في الدنيا لك عمل شئت أم أبيت ، أنت في الدنيا تتحرك ، حركتك في الدنيا هي عملك ، هذا العمل إما أن يكون صالحاً ، وإما أن يكون طالحاً ، إما أن يكون وفق منهج الله ، وإما أن يكون خلاف منهج الله ، إما أن يكون خيراً ، وإما أن يكون شريراً ، إما أن يكون إحساناً ، وإما أن يكون إساءة ، إما أن يكون عدلاً ، وإما أن يكون ظلماً .

أيها الأخوة الكرام ؛ ينبغي على كل إنسان أن يتفحص عمله ، أن ينقد نفسه نقداً ذاتياً ، ألا ينام الليل قبل أن يحاسب نفسه عما اقترفت يداه في النهار ، هذه النفس اللوامة أثنى الله عليها في القرآن الكريم ، قال :

﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾

[سورة القيامة : 2]

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا ، فلنخذ حذرنا . .

أيها الأخوة الكرام ؛ محور السورة هذا الميزان ؛ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . أعماله الصالحة ، هذه الأعمال التي قد تبدو لنا في الحياة الدنيا معنوية ، توزن بأدق الموازين ، وقد سئل عليه الصلاة والسلام عن ميزان يوم القيامة فقال : " ميزان يليق بالمقام " ، كل ميزان له كفتان وميزان ، ولكن ميزان يوم القيامة يليق بالمقام .

يا أيها الأخوة الكرام ؛ أحد القضاة دخل على أمير المؤمنين وقال له : أرجو أن تعزلني من القضاء ، فقال له : ولم ؟ وهل في البلدة من هو أعدل منك ؟ قال : عُرف عني في المدينة أنني أحب الرطب في بواكيره ، قبل أن يُطرح في الأسواق ، البارحة طُرق بابي ، وجاءني طبق من الرطب في بواكيره وفي أعلى مستوياته ، سألت الغلام من أتى بهذا الطبق ؟ قال : رجل . قلت : صفه لي ؟ قال : صفته كيت وكيت ، فعلمت أنه أحد المتخصصين عندي ، فرددت هذا الطبق .

قال : يا أمير المؤمنين في اليوم التالي حينما وقف المتخاصمين أمامي ، تمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم لي طبق الرطب ، مع أنني رددته فكيف لو قبلته ؟
المؤمن أيها الأخوة يزن أعماله بميزان دقيق ، من حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً ، كان حسابه يوم القيامة يسيراً ، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً بمقاييس غير صحيحة ، كان حسابه يوم القيامة عسيراً .

تقييم الأشياء يوم القيامة بميزان بالغ في الدقة :

أيها الأخوة الكرام ؛ دققوا في هذا الحديث الشريف ، الميزان يوم القيامة هذا الميزان ليس فيه عواطف ، ولا انفعالات ، ولا محاباة ، الميزان من الجماد ، أنت حينما تضع حاجة في ميزان ، لو رجوت الميزان أن يجعلها راحة هل ترجح ؟ جامد . . كذلك الميزان يوم القيامة لا نعلم طبيعته ، لكنه يقيّم الأشياء بمقاييس بالغة في الدقة ، النبي عليه الصلاة والسلام مع أنه سيد البشر ، ومع أنه سيد الأنبياء والمرسلين ، وهو الذي يوحى إليه قال : " لعل أحدكم ألحن بحجته من الآخر - لعل أحدكم كان طليق اللسان ، وقوي البيان ، يملك حجة قوية ، واختلف مع رجل ، ورفعت إليّ القضية، وكان أحد الخصمين ألحن بحجته من الآخر - فإذا قضيت له بشيء فإنيما أقضي له بقطعة من النار " إذاً الحساب يوم القيامة في ميزان دقيق ، هذا من باب الافتراض ، النبي عليه الصلاة والسلام بشر ، يرضى كما يرضى البشر ، ويغضب كما يغضب البشر ، وربما كان أحد الناس ألحن بحجته من الآخر ، لكن الله سبحانه وتعالى يزن أعمال الإنسان يوم القيامة بميزان بالغ الدقة .

من ثقلت موازينه فهو في عيشة متنامية لا تزول عنه :

أيها الأخوة الكرام ؛

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾

قال المفسرون : عيشة راضية ، أي مرضي عنها ، استخدم اسم الفاعل مكان اسم المفعول ، أما السؤال لم ؟ لم جاءت الصيغة هنا بصيغة اسم الفاعل وليس بصيغة اسم المفعول ؟ . . المنطق يقول : فهو في عيشة مرضي عنها . قال تعالى :

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾

وجه بعضهم هذه الآية توجيهاً لطيفاً ، قال : أنت إذا كنت في عيشة مرضي عنها ، هذه العيشة المرضي عنها قد تزول عنك ، قد تتصرف عنك ، قد لا تبقى لك ، عبر الله عن معنى أن هذه العيشة المرضية عنها لا تزول عنك ، لا تتصرف عنك ، لا تفقدها ، هي راضية عنك ، هي ملازمة لك :

﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾

[سورة الحجر : ٤٨]

هذه العيشة متنامية ، متصاعدة ، هذا معنى قول الله عز وجل :

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾

قال عليه الصلاة والسلام:

((يا قيس! إن لك قريناً تدفن معه وهو حي ، ويدفن معك وأنت ميت ، فإن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً أسلمك ، ألا وهو عملك))

[صحيح عن قيس بن عاصم]

تفحصوا أعمالكم ، وظيفتكم ، حرفتكم ، كونك طبيباً ، محامياً ، مدرساً ، تاجراً ، موظفاً ، صانعاً ، صاحب حرفة ، افحص عملك ، هل فيه خيانة ؟ هل فيه ابتزاز ؟ هل فيه غش ؟ هل فيه مبالغة ؟ هل فيه تضخيم ؟ هل فيه تهويل ؟ هل فيه ظلم ؟ ابحث عن عمل ، قيم عملك كل يوم ، إن كان عملك كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً أسلمك .

إِتْقَانُ الْعَمَلِ مِنَ الدِّينِ :

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾

إِتْقَانُ الْعَمَلِ مِنَ الدِّينِ ، الصِّدْقُ صِلبُ الدِّينِ ، المَوْمِنُ لَا يَكْذِبُ ، وَلَا يَعْشُ ، وَلَا يَمَاطِلُ ، وَرَدَّ فِي الْأَثَرِ أَنْ : " أَطْيِبُ الْكَسْبِ كَسْبُ التَّجَارِ الَّذِينَ إِذَا حَدَّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا ، وَإِذَا وَعَدُوا لَمْ يَخْلَفُوا ، وَإِذَا اتَّمَنُوا لَمْ يَخُونُوا ، وَإِذَا كَانَ لَهُمْ لَمْ يَعْسُرُوا ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَمْطَلُوا ، وَإِذَا بَاعُوا لَمْ يَطْرُوا - لَمْ يَمْدَحُوا - وَإِذَا اشْتَرَوْا لَمْ يَذْمُوا " افحص عملك في البيت ، افحص عملك في الحرفة ، افحص عملك في كسب الرزق ، افحص عملك في علاقاتك الاجتماعية .

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾

ما الذي يهملك ؟ هل الذي يهملك الاستمتاع بالدنيا أم العمل الصالح ؟ أم نشر الحق ؟ هل تحمل همّ هذا الدين ؟ هل تحمل هذا الدين أم أنك تتمنى أن يحملك هذا الدين ويرقى بك من دون جهد ولا مشقة ؟

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾

الله جلّ جلاله أقسم بعمر النبي عليه الصلاة والسلام قال :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

[سورة الحجر : ٧٢]

ما هذا العمر الثمين ؟ إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها ودنياها . .

ما الذي يقلقك ؟ ما الذي يشغلك ؟ ما الذي تسعى إليه ؟ ما الذي يفرحك ؟ ما الذي يحزنك ؟ ما الذي يرضيك ؟ ما الذي يغضبك ؟ اطرح على نفسك هذه الأسئلة تتعرف إلى حقيقة عمك .

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾

هي عيشة مرضي عنها من قبلك ، ولكنها راضية عنك ، بمعنى أنها لا تفارقك ، ولا تزول عنك ، ولا تتصرف عنك . نحن في الدنيا إذا راقت لأحدنا عيشته هل يضمن بقاءها ؟ هل يضمن أن يبقى في هذا البيت إلى الأبد ؟ لا بد من نزول القبر ، هل يضمن أن يستمتع بهذه الصحة إلى ما شاء الله . كل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر .

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾

ابتغاء الرفعة عند الله و تطبيق منهجه :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾

[سورة الفرقان : ٢٣]

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾

[سورة الكهف : ١٠٣]

وزناً ، قد يأتي إنسان من عامة الناس في الدنيا ، لكنه عند الله كبير ، يأتي بعمل كالجبال ، وقد يأتي إنسان بعمل ملء الدنيا ضجيجاً لا يقيم الله له وزناً يوم القيامة . ابتغوا الرفعة عند الله . وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْفِعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾

[سورة الواقعة : ١-٣]

رافعة .

((رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره))

[الحاكم عن أبي هريرة]

أهلاً بمن خبرني جبريل بقدمه ، قال : أو مثلي ؟ قال : نعم يا أخي حامل في الأرض علم في السماء . ابتغ الرفعة عند الله ، طبق منهج الله عز وجل :

﴿ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهُ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب : ٧١]

من خفت موازينه فمأواه إلى النار :

أيها الأخوة الكرام ؛

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

[سورة القصص: ٨٣]

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾

[سورة القارعة : ٨-٩]

الأم كلمة محببة ، لا أحد يعلم مقدار ما في قلب الأم من الرحمة ، الأم ملاذ الإنسان ، الأم ملجأه، رمز العطف والحنان .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾

[سورة القارعة : ٨-٩]

هناك الصاعقة . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ، ما معنى الهاوية : فسرها الله عز وجل :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾

[سورة القارعة : ١٠-١١]

ملجأه إلى النار ، ملاذه إلى النار ، مأواه في النار .

ضرورة معرفة سورة القارعة معرفة دقيقة :

هذه سورة القارعة سورة ينبغي أن نعرفها حق معرفتها ، ينبغي أن نعرف أبعادها، ينبغي أن نعرف مدلولاتها ، هذا القاضي الذي وزن عمله بميزان دقيق قال : يا أمير المؤمنين اعزلني من القضاء ، قال : ولم ؟ وهل في الأمة من هو أعدل منك ؟ قال : في اليوم التالي لم يستو عندي الذي قدم الطبق والذي لم يقدمه مع أنني رددته ، فكيف لو قبلته ؟

حاسب نفسك حساباً دقيقاً ، تفحص نيتك ، قبل أن تقول كلمة ، قبل أن تتبسم ، قبل أن تعبس ، قبل أن تعطي ، قبل أن ترضى ، قبل أن تغضب ، قبل أن تصل ، قبل أن تقطع ، قبل أن تطلق ، قبل أن تتزوج ، قبل أن تتبع الشيء ، قبل أن تشتريه ، قبل أن تفعل شيئاً ، هل هذا العمل يوافق لشرع الله عز وجل ؟ كيف سأحاسب عنه يوم القيامة ؟ .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾

أيها الأخوة الكرام ؛ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا لغيرنا وسيخطئنا لغيرنا إلينا ، الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى .

* * *

الخطبة الثانية :

أشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، صاحب الخلق العظيم ، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أيها الأخوة الكرام ؛ في بحر هذا الأسبوع قرأت بحثاً عن حليب الأم ، وجدت فيه العجب العجاب ، فوالله الذي لا إله إلا هو حينما تقف أمام آية من آيات الله يقشعر جلدك ، تقف أمام عظمة الله وجهاً لوجه .

هل تصدقون أيها الأخوة أن حليب الأم يتغير تركيبه خلال الرضعة الواحدة ؟ يبدأ حليب الأم بماء كثير ، ثم يقل الماء ويزداد الدسم ، إلى أن تصبح المواد الدسمة في نهاية الرضعة أربعة أمثال . المواد الدسمة في أول الرضعة مثل ، وفي آخرها أربعة أمثال . البروتين في نهاية الرضعة يصبح مثلاً ونصف ، السكر لا يتغير من أول الرضعة إلى آخرها . الماء يكون أكثره في أول الرضعة . هل بالإمكان أن تغذي طفلاً بقارورة وتتغير نسب الدسم والمواد السكرية والمواد البروتينية في أثناء الرضعة الواحدة ؟

شيء آخر : تتغير تراكيب مقومات لبن الأم كالأحماض الأمينية ، والأملاح المعدنية ، والمعادن النادرة بالكميات المعادلة لنمو الصغير كلما نما الصغير . كلما نما الرضيع الأحماض الأمينية تزداد، والأملاح المعدنية ، والمعادن النادرة ، والفيتامين د الذي يمنع الكساح.

اكتشف العلماء أن في حليب الأم أجساماً مضادة لكثير من الأمراض ، وأن في حليب الأم حصانة ومناعة ضد البكتريا وأمراض الحساسية ، أما الشيء الذي لا يُصدق أن هذا الطفل الذي خلقه الله عز وجل أودع فيه خمائر بمقادير تتناسب مع حليب الأم . فلو أرضعته حليب البقر لو كان طازجاً ، أو كان مجففاً ، لو أرضعته حليب البقر ما الذي يحصل ؟ إن خمائر البطن التي أودعها الله في جسم الرضيع لا تتناسب مع المواد الدسمة التي في حليب البقر . لذلك يعجز الطفل عن هضمه ، وتبقى كميات كبيرة من المواد الدسمة ، والبروتينات ، والأحماض الأمينية دون هضم ، ما الذي يجهد الكلية ؟ طرح هذه المواد ، لذلك الطفل الذي يرضع حليب البقر تجهد كليته في طرح المواد الدسمة ، والأحماض الأمينية ، والبروتينات التي لم يستطع هضمها ؛ لأنه مجهز لهضم حليب الأم ، لأن خمائر البطن عنده متوافقة مع حليب الأم، وليست مع حليب البقر ، فإذا أرضعته حليب البقر عجز عن هضمه ، وبقيت هذه المواد في دمه عندئذ تجهد الكلية في طرحها .

أيها الأخوة الكرام ؛ في حليب البقر أربعة أمثال ما في حليب الأم من الأحماض الأمينية ، والنسب فيما بين الأحماض الأمينية في حليب البقر ليست كنسبة الأحماض الأمينية التي في حليب الأم ، هذه متوافقة توافقاً تاماً مع تركيبه . الخمائر التي ينبغي أن تهضم حليب البقر لا توجد عند الطفل الصغير لذلك يعجز عن هضمها . العلماء قالوا : ارتفاع نسبة الأحماض الأمينية في الدم تسبب للطفل القصور العقلي .

شيء آخر : حليب اقتصادي ، وأقل كلفة ، وليس ملوثاً ، معقم تعقيماً جاهزاً ، ساخن في الشتاء ، بارد في الصيف ، حينما يبكي الطفل الصغير يجد الحليب جاهزاً ، أما إلى أن تغلي الحليب حتى

تعقمه ، وإلى أن تبرده ، يموت الطفل من البكاء . اقتصادي ، أقل كلفة ، ليس ملوثاً . . الطفل الذي يرضع من ثدي أمه لا يعاني من التهابات الأمعاء ، ولا من إنتاناتها، بل إن العطف والحنان الذي يتلقاه الطفل من أمه في أثناء الرضاعة هذا يكسبه رحمة في قلبه إلى يوم يلقي الله عز وجل . لذلك قال الله عز وجل :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾

[سورة البقرة: ٢٣٣]

قال العلماء : الحد الأدنى ستة أشهر ، والحد الأتمّ حولان كاملان . نقطة دقيقة : إذا حدث ما يمنع الرضاعة من الأم العلماء يقولون : ينبغي أن تبحث له عن مرضعة ، لا أن ترضعه من حليب البقر . .

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾

[سورة البقرة: ٢٣٣]

البديل ليس حليب القوارير ، أن تبحث له عن مرضعة ، والمرضعة هذه ينبغي أن تكون صحيحة - جيدة الصحة - ذات عقل كبير ، وخلق قويم لقول النبي عليه الصلاة والسلام : "لا تسترضعوا الحمقى فإن اللبن يعدي ." .

هذا منهج الله عز وجل ، الذي يقوله النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، إنه تعليمات الصانع . . لذلك الآن القصور العقلي ، والآفات القلبية ، والآفات الوعائية ، وأمراض جهاز الهضم والكبد ، والأمراض المزمنة التي تلازم الإنسان طوال حياته ، ربما تُفسر بأنه لم يرضع من ثدي أمه . . ولو سألت أطباء الأورام الخبيثة لأجابوك : إن المرأة التي ترضع ابنها من ثديها أقل عرضة للإصابة بورم الثدي من المرأة التي لا ترضع ابنها من ثديها ، أي نسب أورام الثدي الخبيثة في النساء اللاتي يرضعن أولادهن قليلة جداً ، أما نسب الأورام الخبيثة في النساء اللاتي لا يرضعن أولادهن فعالية جداً . ألم يقل الله عز وجل :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾

[سورة البلد: ٨- ١٠]

قال ابن عباس : النجدان هما الثديان . .

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رَقَبَةً ﴾

[سورة البلد: ١٠- ١٣]

أن تعنق رقبتك من نير الشهوات ، أن تتحرر من نير الشهوات . . تعس عبد الدرهم والدينار ، تعس عبد الفرج ، تعس عبد البطن ، تعس عبد الخبيصة .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رَقَبَةً ﴾

[سورة البلد: ٨- ١٣]

اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شرّ ما قضيت ، فإنك تقضي بالحق ولا يُقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، ولك الحمد على ما قضيت ، نستغفرك ونتوب إليك ، اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك . اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا ، اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا اللهم بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا ، مولانا رب العالمين . اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، ودينانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا ، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، مولانا رب العالمين . اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عن سواك . اللهم لا تؤمنا مكره ، ولا تهتك عنا سترك ، ولا تنسنا ذكرك يا رب العالمين . اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، وآمنا في أوطاننا ، واجعل هذا البلد آمناً سخياً رخياً وسائر بلاد المسلمين . اللهم إنا نعوذ بك من الخوف إلا منك ، ومن الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك ، نعوذ بك من عضال الداء ، ومن شماتة الأعداء ، ومن السلب بعد العطاء . اللهم ما رزقتنا مما نحب فاجعله عوناً لنا فيما نحب، وما زويت عنا ما نحب فاجعله فراغاً لنا فيما نحب . اللهم صن وجوهنا باليسار ، ولا تبذلها بالإقتار ، فنسأل شرّ خلقك ، ونبتلى بحمد من أعطى ، ودم من منع ، وأنت من فوقهم ولي العطاء، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء . اللهم كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك يا رب العالمين . اللهم بفضلك وبرحمتك أعل كلمة الحق والدين ، وانصر الإسلام وأعز المسلمين، وخذ بيد ولاتهم إلى ما نحب وترضى ، إنك على ما تشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

والحمد لله رب العالمين